أرملة حكومة ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا[١] هو الرجل العَزَب ، يكون مُطيقاً للزواج قادراً عليه ولا يتزوج ؛ بل يركب رأسه في الحياة ، ويذهب يُمَوِّهُ على نفسه كذبا وتدليساً ، وينتحل لها المعاذيرَ الواهية ، ويَخْتَلِق العللَ الباطلة ، يحاول أن يُلحِق نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو ؛ ويضيف شؤمَه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات ، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه ؛ ويرميهنَّ بالسوء وهو السوءُ عليهن ، ويَتَنَقَّصُهُنَّ ومنه جاء النقص ، ويَعيبهُنَّ وهو أكبر العيب ؛ لايتذكر إلا الذى له ، ولا يتناسى إلا الذى عليه ، كأنما انقلبت أوضاع الدنيا ، وتبدلت رسومُ الحياة ، فزالت الرجولة بتبعاتها عن الرجل إلى المرأة ، وانفصلت الأنوثة بحقوقها من المرأة إلى الرجل ، فوجب أن تحمل تلك ما كان يحمل هذا ، فتُقْدِم ويَقَرّ وادعاً ، وتتعب ويستريح ، وتعانى الهمومَ السامية فى الحياة الاجتماعية ، ويعانى المُخَنَّثُ ابتساماتِه ودموعَه ، متكئاً فى مجلسه النِّسْويّ تحت جَناح المِرْوحة . . . فأما المرأة فتشرف على هَلَكَتِها ، وتخاطرُ بحاضرها ومستقبلها ، وأما هو فيَقِى من ثيابه فى مثل الخِدْر المَصُون . . . !

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائف المُبَهْرَج ، يُحْسَبُ فى الرجال كذبا وزوراً ؛ إذ لا تكمل الرجولةُ بتكوينها حتى تكمل بمعانى تكوينها ، وأخصّ هذه المعانى إنشاءُ الأسرة والقيامُ عليها ، أىْ مغامرةُ الرجل فى زمنه الاجتماعىّ ووجودِه القومىّ ، فلا يعيش غريباً عنه وهو معدود فيه ؛ ولا طُفَيْلِيًّا فيه وهو كالذَّنَبِ منه ، ولا يكون مَظْهراً لقوة الجنس القوى هاربةً هروبَ الجبن من تَحمُّل ضعف الجنس الآخر المحتمى بها ، ولا لمروءة العشير مُتَبَرِّئَةً تَبَرُّؤَ النذالة من مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها ؛ ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يملآن فى نساء أمته عملاً واحداً ، وأن يصبح هو والكساد لا يأتى منهما إلا أثرٌ متشابه ، وأن يبيت هو والفناء فى ظُلمةٍ واحدة كظلمات القبر ، تنقل الأجداثَ إلى الدور ، فتجعل البيت الذى كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌّ وأطفال — بيتاً خاوياً كأنما ثكل الأم والأطفالَ ، وبقيت فيه البقية من هذا الرجلِ العَزَبِ الميت أكثرُ تاريخه . . . !

لقد رأيت بعينىَّ أداةَ العزب وأثاثه المبعثر فى بيته ، كأنما يقصّ عليه كلٌّ ذلك قصةَ شؤمه ووحدته ، وكأنما يقول له الفَرْش والنَّجْدُ والطراز : « بعنى يارجل وردّنى إلى السوق ؛ فانى هنالك أطمع أن يكون مصيرى إلى أب وأم وأولاد ، أجِدُ بهم فرحةَ وجودى ، وأصيب من معاشرتهم بعض ثوابى ، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكون قد عملت عملاً انسانياً . أما عندك فأنت خشبة مع الخشب ، وأنت خِرْقة بين الخِرق . واسمع الكرسىّ إنه يقول : أفٍّ . وأصغِ الى فراشك انه يقول: تفٍّ .. »

شهد العزبُ وربُّ الكعبة على نفسه أنه مُبْتَلًى بالعافية ، مستعبدٌ بالحرية ، مجنون بالعقل ، مغلوب بالقوة ، شقى بالسعادة . وشهدتْ الحياة عليه ورب البيت أنه فى الرجولة قاطع طريق يقطع تاريخها ولا يؤَمِّنُه ، ويسرق لذاتها ولا يكسبها ، ويخرج على شَرْعِها ولا يدخل فيه ، ويمضى واجباتها ولا ينقادها . وشهد الوطن — والله — عليه أنه مخلوق فارغ كالواغل على الدنيا ؛ إن كان نعمةً بصلاحه ، انتهتْ النعمةُ فى نفسها لا تمتد ؛ وإن كان بفساده مصيبةً امتدتْ فى غيرها لا تنقطع . وأنه شحّاذ الحياة أحسن به الأجداد نسلاً باقياً ، ولا يُحْسِن هو بنسل يبقى ، وأنه فى بلاده كالأجنبى ، مهبطه على منفعةٍ وعيشٍ لا غيرهما ، ثم يموت وجودُ الأجنبى بالنُّقْلَةِ إلى وطنه ، ويموت وجودُ العزب بالانتقال إلى ربه ؛ فيستويان جميعاً فى انقطاع الأثر الوطنىّ ، ويتفقان جميعاً فى انتهاب الحياة الوطنية ، وأن كليهما خرج من الوطن

---

(١) أنظر مقالة « استنوق الجمل » بالعدد ٦٤ من الرسالة . والتاء فى « أرملة الحكومة » ليست للتأنيث ، بل هى تاء جديدة فى العربية ، تزاد فى هذه الكلمة خاصة ، واسمها تاء المزز . . . وياحبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل مجرب « أرملة حكومة » فان هذا الاسم إذا عم وشاع كان فى معناه وفعله المطهر حامضاً لغوياً كحامض الفنيك . . . !

أبتر لا عقب له ، ويذهبان معاً فى لجج النسيان : أحدهما على باخرة ، والآخر على النعش !

***

جاءنى بالأمس « أرملة حكومة » وهو مهندس موظف . ومعنى الهندسة الدقة البالغة فى الرقم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق ؛ ثم الحذرُ البالغ أن يختلّ شىء أو ينحرف ، أو يتقاصر أو يطول ، أو يزيد أو ينقص ، أو يدخله السهو ، أو يقع فيه الخطأ ؛ إذ كان الحاضر فى العمل الهندسىّ إنما هو للعاقبة ، وكان الخيال للحقيقة ؛ وكان الُخرْق هنا لا يقبل الرُّقعة . ومتى فصلت الأرقام الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ورجع الحساب حينئذ وهو حساب عقل المهندس ؛ فاما عقل دقيق منتظم ، أو عقل مأفون مختلّ .

بَيْد أن المهندس — على ما ظهر لى — قد تخلّصَ حياته من الهندسة . . . وانتهى فيها من التحريف المضحك — حتى فيما لا يخطىء الصغار فيه — إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين . » فقد رَوَوا أن إمام قرية من القرى فى الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلى بهم فى مسجدها ، فنزل به ضيف من العلماء فقال له الخطيب : إن لى مسائل فى الدين لم يتوجّه لى وجهُ الحق فيها ، ولا أزال متحيّر الرأى ، وكنت من زمن أعنى أن ألقى بها الأئمة فأريد أن أسألك عنها . قال العالم : سَلْ ما أحببت .

قال الخطيب : أشكَلَ علىّ فى القرآن بعضُ مواضع ، منها فى سورة الحمد « إياك نعبد وإياك » . . . أىّ شئ بعده . « تسعين ، أو سبعين » . . ؟ أشكلَتْ علىّ هذه فأنا أقرؤها : تسعين . أخذاً بالاحتياط . . . !

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو عَزَبٌ أخذاً بالاحتياط . قال وهو يحاورنى :

كيف تُكلّفنى الزواج وتُكرهنى عليه ، وتُمتّفنى على العزوبة وتعيبنى بها ؛ وإنما أنت كالذى يقول : دع الممكن وخذ المستحيل . إن استحالة الزواج هى جعلتنى عَزَباً ، والعزوبة هى جعلتنى فاسداً ، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب إما أن تكسد الفتاة ، وإما أن تتصل بها العَدْوَى . والعزب لا يأبى أن يقال فيه إنه للنساء طاعون أحمر أو هواء أصفر ؛ فهو والله مع ذلك موت أسود وبلاء أزرق .

قلت : لقد هوّنتَ علىّ ؛ فما مستحيلك يا هذا ، ولِمَ استحال عليك ما أمكن غيرَك ، وكيف بلغت مصر خمسة عشر مليوناً ؟ أمِنْ غير آباء خُلِقوا ، أم زُرِعوا زرعاً فى أرض الحكومة ؟ إسمع — ويحك — ألاَ يكون الرجال قد أقبلوا وتراجَعت ، وتجلدوا وتوجّعت ، أو أقدَموا وخنسَت ، واسترجلوا وتأنّثَت ؟

قال : ليس شئ من هذا .

قلت : فان المسألة هى كيف ترى الفكرة ، لا الفكرةُ نفسها ، فما حملك على العزوبة وأنت موظف وظيفتك كذا وكذا ديناراً ، وأنت مهندس يصدق عليك ما قالوه فى الرجل المجدود : لو عَمِد إلى حَجرٍ لانفلق له عن رزق .

قال : أليس مستحيلاً ثُمّ مستحيلاً أن يجمع مثلى يده على مائة جنيه يدفعها مهراً ؛ وما طرقت — علم الله — باباً إلا استقبلونى بما معناه : هل أنت معجزة مالية ، هل أنت مائة جنيه ؟

قلت : فان عملك فى الحكومة يُغِل عليك فى السنة مائة وثمانين ديناراً فِلمَ لاتعيش سنة واحدة بثمانين نتقع المعجزة ؟

قال : « بكل أسف » لايستطيع الرجل العزب أن يدخر أبداً ؛ فهو فى كل شئ مبدِّد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتك على نفسك بالسفه والخرق والتبذير ؛ تنفق ما يكفى عدداً وتضيق بواحدة ، وماذا تَرْثى مثلك فى الحياة ؟ أعند نفسه وفى يقينه أن يتأبّد فيبقى عزباً فهو ينفق ما جمع فى شهوات حياته ، ويتوسّع فيها ضروباً وألواناً ، ليكون وهو فرد كأنه وهو فى إنفاقه جماعة ، كل منهم فى موضع رذيلة أو مكان لهو ؛ وكأن منه رجالاً هو كاسبهم وعائلهم ، ينفق على هذا فى القهوة ، وعلى هذا فى الحانة ، وعلى ذلك فى الملاهى ، وعلى الرابع فى المواخير ، وعلى الخامس فى المستشفى . . . ؟ إن كان هذا هو أصل الرأى عند العزب ، فالعزب سفيه مجرم ، وهو إنسان خرب من كل جهة إنسانية ، وهو فى الحقيقة ليس المتّسعَ لنفقات خمسة ، بل كأنه قاتل خمسة من أبناء وطنه ؛

[البقية على صفحة ١٦٧٩]